[١]

سعيد يجد نفسه فوق خازوق بلا رأس

كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال : جاءت النهاية حين استيقظت في ليلة بلا نهاية . فلم أجدني في فراشي . فزارتني البردية . فمددت لها يدي ابحث عن سترة فاذا بها تقبض الريح .

رأيتني جالسا على ارض صفاح . باردة مستديرة . لا يزيد قطرها على ذراع . وكانت الريح صرصرا والارض قرقرا . وقد تدلت ساقاي فوق هوة بلا قرار كما تدلى الليف في الخريف . فرغبت في أن أريح ظهري . فاذا بالهوة من ورائي كما هي الهوة من أمامي وتحيط بي الهوة من كل جانب . فاذا تحركت هويت . فأيقنت اني جالس على رأس خازوق بلا رأس .

فصرخت : النجدة ! فجاءني بها رجع الصدى واضحة حرفا حرفا . فعلمت انني جالس على علو شاهق . فرحت أسلي وحشتي بمجاذبة الصدى أطراف الحديث . فكان الحديث طريفا حتى افترت الهوة عن ابتسامة فجر أغبر كأنها العبوس .

فماذا أنا فاعل ؟

فناديت عليّ قائلا : هدىء من روعك ، يا ابن النحس ، واجعل أمرك شورى مع عقلك . فما الذي وضعك هذا الموضع ؟ وهل من المعقول ان تنام في فراشك مساء فتستيقظ فاذا أنت على خازوق ؟ تأبى هذا الامر نواميس الطبيعة وأحكام المنطق . فأنا ، اذن ، في حلم لا غير على الرغم من انه حلم طويل .

فما بالي أظل قاعدا على هذا الخازوق ، تحزمني البردية ثم تنشرني لا ستر ولا ظهر ولا أنيس ، ولا أنزل ؟

هذا خازوق في كابوس لا محالة . كابوس عن خازوق . فاذا نزلت عن الاخير نفضت الآخر عن صدري فأعود الى فراشي واتغطى واتدفأ . فكيف أتردد ؟ أخوفا من ان أهوي من هذا العلو الشاهق الى قاع الهوة ، كبطة أردتها رصاصة صياد بط ، فأتوجع فأموت ؟

ولكن موضعي هذا هو موضع الوهم على خازوق الوهم . فهو فيما يراه النائم من احلام تخالف نواميس الطبيعة واحكام المنطق . فهيا ، هيا احتضن هذا الخازوق بساعديك وبساقيك وبكل ما فيك من عزم وحزم وارادة شديدة عند الشدة ، ثم اهبط عليه وئيدا كالسنجاب .

فأزمعت أمري . فحركت ليفتي المتدليتين أتحسس صفحته فاذا بها ملساء كجلد الثعبان باردة مثل برودة . فأيقنت انني لن أقوى على التشبث بهذا الثعبان . واذا نزلت فأنا واقع لا محالة في القاع ، فأدق عنقي فأتوجع فأموت . فأمسكت .

وانتني حكاية الساحر الهندي الذي ينصب الحبل فيظل يرتفع في السماء حتى يغيب رأسه في الغيم فيصعد عليه حتى يغيب ثم يعود ويهبط عليه فلا يتأذى بل يسترزق . ولكنني قلت : ما أنا بساحر هندي بل مجرد عربي بقي ، سحرا ، في اسرائيل .

فأردت أن أصرخ : أنا في كابوس ! ثم أن أقفز ، فلا يمكن أن أموت !

ولقد صرخت . الا انني لم أقفز . فاذا كان موضعي هذا هو موضع الوهم فوق خازوق الوهم ، وفيما يراه النائم في منامه من حلم او من كابوس ، فلن يدوم الامر طويلا قفزت أم قعدت . وسوف استيقظ ، لا محالة ، فأجدني في فراشي متغطيا متدفئا .